نظرة فى مصرع « كليوباترا »

مسرحية « مصرع كليوباترا » للشاعر العظيم شوقى آية من آيات البيان العربى الخالد ، وما طالعت فيها مرة إلا أحسست بنشوة فكرية عجيبة ، إذ أرى الأسلوب يعلو ، والتصوير يجلو ، والمعانى تتفجر تفجر الينابيع الثرارة ، وفى آخر مرة كنت أطالع فيها دفعنى إحساس خفى إلى تسطير هذه السطور كتصوير لجولة سريعة خلال هذه الروضة الأنيقة الحافلة بشتى الأزهار والثمار . . .

إن المسرحية تدور حول « كليوباترا » الملكة التى تولت حكم مصر فترة من الزمن فى العهود القديمة السحيقة ، وتصور كيف تقلبت هذه المرأة بين عز وذل ، وبين نصر وقهر ، وبين استهتار واستكبار ، وكيف انتهت النهاية الأليمة التى ساقتها إليها الحوادث سوقا . . .

هأنذا أقف عند قول « حابى » لرفيقه « ديون » حينما يسمعان الشعب المصرى المضلّل يردد نشيدا لنصر زعموه :

اسمع الشعب « ديون » كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافا بحياتى قاتليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء عقله فى أذنيه !

فيرد عليه (ديون) مصورا ذلة الشعب ، وهوانه على نفسه وعلى حاكميه ، ورضاه بالدون فى مواطن فخره ومعاقد شرفه ، فيقول :

« حابى » سمعتُ كما سمعتَ ، وراعنى
أن الرمية تحتفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطلا فى تاجهم
وأصار عرشهمُ فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئا
ولو استطاع مشى على الأهرام !

ويعود بعد قليل فيخاطب الشعب المتابع الساذج قائلا :

هداك الله من شعب بريء يصرفه المضلل كيف شاء

وراعنى كثيرا أن أرى (حابى) يصور حياة « كليوباترا » وحبها « لأنطونيو » ، وتأثير ذلك فى سمعتها وهيبة ملكها ، وتعريضها كرامة البلاد لأقاويل الخنا ومسبات التعريض ، فيخاطب (زينون) الشيخ العجوز الذى كان ينطوى على حب عميق دفين لكليوباترا ، ولكنه يغالبه ، إذ لا فائدة فيه ؛ وأين الشيخ المحطم من السلطان الشاب الناضر ؟ . . . ولذلك لا ينال « زينون » على حبه من كليوباترا إلا البسمة الخاطفة أو الكلمة العابرة ، فيقول :

وتعطَى حين تلقاها ابتساما وانطونيوس يعطَى مايشاء
صباحهما مغازلة وصيد وللأقداح والقُبل المساء
أترضى أن يكون سرير مصر دعائمه الدعارة والبغاء ؟
أنهدم أمة لتشيد فردا على أنقاضها ؟ بئس البناء ؟

ثم رأيتُ بعد ذلك كيف يعمد الحاكمون الضعفاء السفهاء إلى تضليل الشعوب وخديعة الأمم عن طريق الافتراءات ، والمظاهر الكاذبة التى تخفى من ورائها النار فى الهشيم ، فها هى ذى كليوباترا تعود مهزومة من موقعة « أكتيوم » ، وتجر وراءها ذيول الخيبة والخسران ، ولكن « بلاطها » وحاشيتها وبطانتها لا تريد للملكة أن تظهر بين الشعب بمظهر المكسور المنهزم ، ولذلك تعمد (شرميون) وصيفة الملكة المحبة لها إلى اصطناع طائفة من الشعب ، وتكليفهم بترديد نشيد عريض كذوب ، كله تمجيد للانتصار الموهوم ، وإيحاء إلى الشعب بأن « كليوباترا » قد انتصرت فى الحرب انتصارا باهرا ، وتسمع « كليوباترا » من قصرها هذا النشيد فتتساءل عن مردديه : « أ لخير تجمعوا أم لشر ؟ » . . . فتمضى « شرميون » فى خديعتها وتظاهرها ، لكى تنتزع موافقة من مليكتها على ما فعلت فتقول لها :

الجماهير يا مليكة بالشط يموجون فى حبور وبشر
سرهم ما لقيت فى « أكتيوم » من ظهور على العدو ونصر
لا يقولون أو يعيدون إلا نبأ بات فى المدينة يسرى

فتتظاهر « كليوباترا » بالغضب من هذا الصنيع ، أوقل إن حفيظتها قد ثارت فانفجرت لضياع النصر الذى كان مرجوا فتقول :

يا لإفك الرجال ! ماذا أذاعوا ؟
كذب ما رووا صُراح لعمرى

أى نصر لقيتُ حتى أقاموا
ألسن الناس فى مديحى وشكرى ؟
ظفَر فى فم الأمانى حلو
ليت منه لنا قلامة ظُفْر !
وغدا يعلم الحقيقة قومى
ليس شىء على الشعوب بسر !

فتخفف « شرميون » من حدة مولاتها وحفيظتها ، وتحاول أن تشرح لها الأسباب السياسية التى دعتها إلى تلك الخديعة ، وتلمح لها إلى الأضرار الجسام التى كادت تقع لولا هذا الاحتيال ، فتقول لها :

ربةَ التاج ، ذلك الصنع صنعى
أنا وحدى ، وذلك المكر مكرى
كثرت أمس فى الإياب الأقاويل
وظن الظنون من ليس يدرى
فأذعت الذى أذعت عن النصر
وأسمعت كل كوخٍ وقصر
خفت فى خاطرى عليك الجماهير
وأشفقت من عداً لك كثر
فاغفرى جرأتى ، فيارب ذنبٍ
يتعب العذر فيه مهدتِ عذرى

فما أسرع ما تستجيب « كليوباترا » لضعفها البشرى ، وما أسرع ما تهتبل الفرصة لتستفيد منها وتستغلها ، وما أسرع موافقتها على ذلك الصنيع ، وتشكر (شرميون) عليه ، ثم تحاول أن تحيل الهزيمة إلى نصر ، والفسولة إلى بطولة ، والتقهقر إلى عبقرية ، فتلتمس لنفسها المعاذير ، وتسرف فى التأويل ، وتبحث عن المخارج الواسعة من ضيق فعلتها الشائنة فتقول :

كنت فى مركبى وبين جنودى
أزن الحرب والأمور بفكرى
قلت روما تصدعت فترى شط
را من القوم فى عداوة شطر
وتبينت أن روما إذا زا
لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف ، سللت شراعى
منه فانسلت البواخر إثرى
موقف يعجب العلا كنت فيه
بنت مصر ، وكنت ملكة مصر !

ثم أنتقل فى روضات أريضات من فن شوقى المبدع الموهوب ، حتى أرى « كليوباترا » والعراف بين يديها فى حفلة بقصرها الفياض بالكاس والطاس ، والقصف والعزف ، والندامى والمغنين ، والشاعرين والشادين ، والأزهار والرياحين ، وألوان الطعام وفنون الشراب ، وغير ذلك مما صوره شوقى العظيم أبدع تصوير بطرق مختلفة ، ليظهر باختلافها اقتداره وافتنانه ، فتخشى « كليوباترا » أن تكون خاتمتها سيئة ، جزاء ما أسرفت فى لذاتها وشهواتها ، ولعبها وشربها ، فتتظاهر بالغضب من ثناء العراف عليها وتقول :

خلنى من زخرف المد ح ومن زور الثناء
ما وراء اليد ياعرا ف من غيب القضاء ؟
أحضيض يومى الآ خر قل لى أم سماء ؟
خاتم الأيام أولى باهتمام العظماء

ثم أرى « أنطونيو » البطل الظافر يخشى أيدى الخيانة والغدر التى تمتد فى دناءة ووضاعة ، لتنال مشتهاها فى الظلمات ومن وراء الظهور ، بعد أن عجزت عن أخذه فى ميادين البطولة والرجولة التى يتسابق إليها الأنداد والأقران ؛ ولعله تذكر فى موقفه ما حدث ويحدث دائماً بين الناس ، فإن العظيم منهم يعلو ويرتفع ، ويسبق من عداه ، فلا يطاوله منهم مطاول ، فتبدأ الأيدى اللئيمة الخسيسة تكيد فى الدياجى وتصيد فى الماء العكر ، وتحفر الآبار للابرياء ، وتنصب الشباك المستورة للعظماء ، فخاف « أنطونيو » أن يصيبه ما أصاب أنداده من الكبراء ، فيقول وهو يتهيأ لمعركة فاصلة أحسن لها الاستعداد :

ولست أخاف الدارعين ، وإنما
أخاف فجاءات الخيانة والغدر
وليس كمين الحرب ما أنا هائب
ولكن كمين الغدر فى ظلمة الصدر

ثم نشهد « أنطونيو » نفسه بعد صفحات وقد خانه الحظ فانهزم وانكسر ، ولعبت الخيانة فى ذلك دوراً جليلا ، فيبكى أنطونيو حظه العاثر الدائر إلى تابعه الوفى الأمين « أوروس » فيحاول التابع فى إخلاص وقوة أن يهون على سيده الهزيمة ، وأن يذكره بسنة الحياة وطبائع الأحياء ، وبأن الحظ دوار ، وأن الأيام دول ، وأن الدنيا لا تثبت على حال ، ولا تدوم على وضع ، وأن الصعود والهبوط يتعاوران الكائنات فى سلطان أقوى من سلطانها ، فيقول :

وقارك قيصر لا تجزعن وخل المقادير تجرى المدى
تلق الهزيمة ثبت الجنان كما كنت تلقى الفتوح العلا
فما أنت أول نجم أضاء ولا أنت آخر نجم خبا
وقد تنزل الشمس بعد الصعو د، وتسقم بعد اعتدال الضحى
ويارب غار عـــلاه الجفو ف على هامة قد علاها البلى

ثم نرى « أنطونيو » يصور ذلته بعد عزته ، وسقوطه بعد رفعته ، وهوانه بعد سيادته ، وتلون الناس معه ، فى قصيد طويل رائع منه قوله :

وشردت فى شرق البلاد وجد فى
طلبى عـــداى بغربها وعداك
أغدو على سيف العدو وناره
وأروح بين مكامن وشـــباك
وتلمست نفسى السيوف ، ورامنى
فى البر والبحر الكمى الشاكى
كانت حياتى للرجال أليـــة
واليوم هنت فأقسموا بهلاكى

وبعد أن يطيل التحسر والبكاء يجيبه تابعه « أوروس » شاعراً بذلة الأبطال بعد العزة :

أجل قيصر اعتضنا من العز ذلة
ومن حلية الإعلام عطل التنكر
فهنّا كأنقاض الحصون على الثرى
وضعنا عليه كالقنا المتكسر
نهيم كأبناء السبيل ، وطالما
أخفنا سبيل العاهل المتجبر
وما منزل الأبطال إلا رحى الوغى
إذا هى دارت أو رواق المعسكر

ثم وقع البطل ، ولقى مصرعه ، وكان مصرعا أليما رخيصا طعن نفسه فى ساعة ضيق بيده فزهقت روحه ، وانطوت الحياة الطويلة العريضة الحافلة ، وأصبح الفاتح المغوار المزلزل جثة هامدة لا حراك فيها ، وهاهى ذى كليوباترا تودع « انطونيو » بعد مصرعه فترفعه بفن شوقى وروعة تصويره فوق هام الأبطال ، وترثيه بهذه الزفرات الحارة ، وتلك القرائد التى لا يرثى بها إلا الفذ العملاق :

قد تداعى محور الأر ض وميزان الشعوب
مال كالشمس جمالا وجلالا فى الغروب
أيها المجروح لو تد رى جرحى وندوبى
أيها الذاهب قد آ ن عن الأرض ذهوبى
أيها الخالص ودا ليس ودى بالمشوب
أيها الصادق وعـــدا ليس وعدى بالكذوب
عن قريب ينطوى القبـ ـر علينا ، عن قريب
كلوه بالـــريا حين ، وبالغار الرطيب
واهتفوا فى أذنيه بأناشيـــد الحروب !

ثم تصور « كليوباترا » لؤم الناس وخسة تصرفهم حين يمجدون الغالب مهما كان سبب غلبه ، ويطعنون المغلوب المخذول مهما كان عذره ، كما قال الأول :

والناس من يلق خيرا قائلون له
ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبل

فتقول « كليوباترا » :

ويح لى قد طلبت عند طباع النا
س ما عز عنـــدهم مطلوبا
خلق الناس للقوى المزايا
وتجنوا على الضعيف الذنوبا
احتفوا فى الحياة والموت بالغا
لب ، فانظر هل عظموا مغلوبا ؟
شيعوا الشاة جيفة بمـــداهم
واتقوا وهو فى الرمام الذيبا !

وهـذا موقف يتداعى فيه بنيان البطل الصنديد ، ويتقوض ركن الهيكل المشيد ، مالم يجد المواسى والمعين ، ولذلك نرى (أونوبيس) الكاهن العالم يسارع فيثبت عزيمة « كليوباترا » ، ويهون عليها ماهى فيه من شدة ، فيقول لها كالآمر المحرض :

الوقارَ الوقارَ يا لبأة النيـ ـل ، ولا تجعلى الزئير النحيبا
وقفى للخطوب فى عزة الملـ ـك وفى كبره تذلى الخطوبا!

وتلحق « كليوباترا » بوادى العدم ، فنرى قيصر المنتصر الغالب ، المقتدر الطالب ، يضرب مثلا كريما للرجولة ، فيعف ويترفع عن الانتقام الرخيص والشماتة الوضيعة والتحكم المهين ، فيرثى خصيمته كليوباترا قائلا :

محا الموت أسباب العداوة بيننا
فلا الثأر ماحاح ، ولا الحقد ثائر
وما استحدثت عند الكرام شماتة
صروف المنايا والجدود العوائر !

***

ليت شعرى ، لماذا جرى القلم بهذه السطور ؟ ! .

أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف